الفصل الخامس

تعريف التوحيد وبيان مقتضاه

بينت في الفصل السابق أن التوحيد الخالص هو أعظم وأهم موضوع ركز عليه القرآن الكريم، ويترتب عليه أيضاً أن التحذير من الشرك والوقوع فيه هو أعظم وأهم موضوع ركز عليه القرآن الكريم، وقد عبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن هذا المعنى العظيم الكبير في الكثير من أحاديثه الشريفة الصحيحة.

فليتصفح المسلم، والباحث المنصف من كل ملة، القرآن الكريم، وسيجد أن الدعوة للتوحيد الخالص، والتحذير من الشرك، وبيان آلاء الله وقدرته وفضله على العالمين، هي المحور الذي يدور عليه القسم الأكبر من آيات المصحف الشريف.

لا مجال للمقارنة بين شأن التوحيد -وهو يعني أيضا التحذير من الشرك والوقوع فيه- وبين الخلافة والإمامة على سبيل المثال. التوحيد أعظم شأنا بما لا يقاس.

وإذا كان اعتناق الإسلام في أصله وبدايته موقفا اختياريا من

obeikandi.com

الإنسان الحر، هدفه تحقيق السعادة عبر الاستجابة لأوامر الخالق عز وجل، وطلب رضاه وفضله ورحمته في الدنيا والآخرة، فإن من واجب كل مسلم أن يفهم معنى التوحيد ومقتضياته على أساس سليم ليصل إلى مرضاة خالقه.

التوحيد: الإيمان بأن الله خالق كل شيء، وإفراده بالعبادة، والإيمان بأنه على كل شيء قدير

ليس أمر التوحيد معقدا، وإنما هو بين وواضح وشفاف. إن معنى التوحيد ظاهر ومفصل في القرآن الكريم وفي سنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. هو حق الله تعالى على العباد وأعظم تكليف شرعه لهم.

مقتضيات التوحيد أن يؤمن الإنسان بالله عز وجل، غيبا من دون أن يراه، يؤمن بأنه الله الذي لا إله إلا هو، خالق الناس جميعا وربهم ورب كل مخلوق، منشئ الأكوان والمتصرف فيها وحده، له ما في السماوات وما في الأرض، وسعت قدرته كل شيء، له ما في السماوات والأرض، يقول للشيء كن فيكون. ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

ثم إن من مقتضيات التوحيد الأساسية أن يعبد الإنسان ربه وحده، ولا يعبد معه أحدا أبدا. إذ لا يكفي الإقرار بأن الله تعالى خالق الأكوان ومسيّرها. فقد كان كثير من مشركي قريش يعلمون أن الله هو خالق السماوات والأرض وما فيهن، ولكنهم مع ذلك كانوا مشركين، لأنهم اتخذوا آلهة أخرى يعبدونها ويعظمونها ويستغيثون بها وينذرون ويذبحون لها بدعوى أنها تقربهم إلى الله زلفى.

obeikandl.com

لذلك فإن الإنسان الموحد لا يصرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله عز وجل. والعبادات المشهورة معروفة مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج.

وهناك أيضا أمور أخرى تدخل في باب العبادة، مثل التوكل والدعاء والاستغاثة والنذر والذبح. وهذه العبادات أيضا يجب ألا تصرف إلا لله تعالى وحده. والمعيار هنا بإيجاز هو أن كل ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل فيجب ألا يطلب إلا منه سبحانه.

والدعاء من العبادة، ونعني به طلب الحاجات التي لا يقضيها إلا الله عز وجل، الحاجات التي تطلب من الله عز وجل وحده، وليس من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو من غيره من العباد. وقد سمى الله تعالى الدعاء بالعبادة في آية واضحة قاطعة لا تحتمل الشك أو التأويل، في قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر ٦٠).

أقول: مقتضيات التوحيد أن يؤمن الإنسان بالله عز وجل، غيبا من دون أن يراه، يؤمن بأنه الله الذي لا إله إلا هو، خالق الناس جميعا وربهم ورب كل مخلوق، منشئ الأكوان والمتصرف فيها وحده، له ما في السماوات وما في الأرض، وسعت قدرته كل شيء، له ما في السماوات والأرض، يقول للشيء كن فيكون ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١) ثم إن من مقتضيات التوحيد الأساسية أن يعبد الإنسان ربه وحده، ولا يعبد معه أحدا أبدا.

إذا التزم الإنسان بهذا النهج، فإنه يستجيب بذلك لنداء خالقه

في القرآن الكريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ
تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا
وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة ٢١-٢٢).

وإذا التزم الإنسان هذا النهج فإنه يدخل في عداد المؤمنين بالله سبحانه وقدرته التي وسعت كل شيء، كما تنبىء بوجوه منها هذه الآيات الكريمة من سورة النمل:

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا
يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ
شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا
وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ
حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ
إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ
قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ
وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا
يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا
يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾.

(٥٩-٦٥)

هذه بعض آلاء الله تعالى وبعض آياته البديعة المبهرة في الكون. وفي القرآن الكريم مواضع أخرى كثيرة مماثلة تعرف الإنسان الموحد بربه ذي الجلال والإكرام.

الموّحد يؤمن بما وصف الله به نفسه

ومن مقتضيات التوحيد المهمة الأخرى في هذا السياق أن يصدق الإنسان الموحّد ويسلّم بما وصف الله تعالى به نفسه، في كتابه العزيز أو في الحديث الصحيح لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم، فهو سبحانه أدرى بنفسه، يقول الحق ويهدي إليه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. ولا يعقل أن يتجرأ المخلوق على رد حديث الخالق عن نفسه وتأويله وتعطيله. كما لا يعقل أن ينشغل الإنسان بمناقشات بيزنطية في أمور غيبية لم يطالب بمعرفة كيفيتها وتفاصيلها.

وبهذا يكون معنى التوحيد واضحا ويسيرا جدا:

التوحيد أن يؤمن الإنسان بالله وحده خالقا وربا لكل الأكوان والكائنات، لا شريك له ولا ند، وأن ينزهه عن كل شبيه، وأن يسلم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى من دون تأويل أو تعطيل، أوتشبيه أو تمثيل، وأن يعبده وحده ولا يعبد معه أحدا سواه.

إنذار عظيم في سورة النحل

تضمن القرآن الكريم هذه المعاني الواضحة للتوحيد. والأحاديث الصحيحة للنبي صلى الله عليه وسلم أكدتها وفصلتها. وبذا، يقيم الله تعالى الحجة على خلقه حتى لا يعتذر معتذر يوما أنه لم يسمع ولم يعرف حق الله عليه. قال تعالى في سورة النحل: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ

سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ (١-٢)

إن الآية الثانية من سورة النحل تختصر مهمة جميع الأنبياء في إبلاغ هذا الإنذار العظيم إلى الناس كافة، إبلاغهم أن الله تعالى ربهم وخالقهم وخالق كل شيء، وأنه يطلب من خلقه أن يؤمنوا به ويتقوه ويعبدوه.

أما الآية السادسة والثلاثون من السورة نفسها فتكرر هذا المعنى بوضوح تام: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾

(النحل: ٣٦)

هذا هو جوهر الموضوع في حقيقة التجربة البشرية في هذا الوجود. إذا فهمه وأدركه فاز وسعد في الدنيا والآخرة. وإذا جهله أو أنكره وضيعه خاب وخسر الدنيا والآخرة.

جوهر الموضوع أن الله تعالى بحكمته خلق السماوات والأرض وما فيهن، وخلق الجن والإنس ليعبدوه. ثم تفضل برحمته فلم يدع الأمر مجهولا على خلقه، وإنما بينه لهم بواسطة أنبيائه وكتبه، وعرفهم أن الحياة الدنيا دار اختبار، مدتها قصيرة وإن طالت، ووعد أهل التوحيد والطاعة والاستقامة بالنعيم المقيم الأبدي في الآخرة، وتوعد أهل الشرك والكفر والضلال بعذاب مقيم أبدي في نار جهنم.

ثم ترك الحرية للإنسان: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩).

على ذكر الحرية، بقيت مسألة أخرى مهمة ذات صلة قوية بالتوحيد، تستحق التوقف عندها، قبل الإجابة عن السؤال الذي ختمت به الفصل الثالث من هذه الرسالة.

obeikandl.com